

التغيرات السياقية وأثرها في حركية اللغة

أ عالية قري

جامعة خنشلة

الملخص:

تتناول هذه الدراسة واقع العلاقة الجدلية بين اللغة والسياق والمجتمع، وكيف يحدث التفاعل بينها، إيجابيا كان أم سلبيا، في ديناميكية تحركهم في خط يتحكم فيه السياق بدرجة أولى. فاللغة لا يتأتى لها مجرد الظهور في سياق لغوي مستقل، بقدر ما تتفاعل عناصر كثيرة في توجيهها وتحديد دلالاتها. وفي هذا الإطار قد تتوسع دلالات وتتخصص أخرى، وقد تختفي مفردات لتطفو بشكل جديد ضمن ما يسمى باللغة الخاصة أو لغة الفئات.

وهذا التغير اللغوي هو نتيجة حتمية لمجموعة من التنقلات السياقية التي يفرضها مستعمل اللغة في وضعيات اجتماعية متغيرة، سواء كان هذا بإحداث جديد طيب يغني اللغة ويثريها، أم بإحداث قطيعة مع اللغة نفسها، حين تطمس شخصية الفرد بتمثيله لسيل من المفردات التي تشوه انتماءه اللغوي.

Abstract :

This study deals with the reality of the dialectical relationship between language and context and society, and now the interaction occurs between them, whether positive or negative, in both dynamic move in line controlled by the context in the first degree. The language does not come to it, just appearing in the context of a language dependent, as far as many elements interact in direct and determine their implications, and in this context, may expand and specialize other connotations, was disappearing vocabulary to float in a new part of the so-called private language or language groups.

This change of language is the inevitable result of a series of movements contextual imposed by the user language in positions Social heterogenous, whether it be the creation of a new good sing language and enriched, or making a break with the language itself, while blurs the personality of the individual to represent him for the torrent of words that distort the affiliation of language.

مقدمة:

تشكل ثنائية اللغة/المجتمع حقلا دراسيا خصبًا سواء للغويين أم للأنثروبولوجيين. وهما في حلقة أخذ ورد مستمرين؛ فبقدر ما تمد اللغة المجتمع بمفرداتها ودوالها التواصلية، بقدر ما تسهم التغيرات الاجتماعية والثقافية، والظروف المستجدة، في إنماء اللغة وتوسيع رقعتها المفرداتية، وإثرائها بالجديد من المصطلحات. على أنه يمكن أن يقع العكس؛ إذ يمكن أن يطل الركود الذي يصيب المجتمع، وضعفه في ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة، اللغة فيسهم في تلاشيها وضمورها على مر العصور.

والأكيد أنه "إذا كان من الواجب علينا أن ندرس اللغة لفهم الفكر وثماره، فمن الواضح أن علينا، ومن أجل أن نفهم اللغة أن ندرس عملها في المجتمع"². فهذا الأخير هو الذي يرسم حدودا للاستعمالات اللغوية ذات البعد الاجتماعي، وهي حدود تتسع وتضيق "باتساع مفهوم تلك الجماعة أو ضيقه، لطبيعة العقد الاجتماعي الذي يحدد علاقة الفرد بالمجتمع. ويختلف الأفراد بعضهم عن بعض في هذه الاستعمالات بالمقدار الذي تحصلوه من فهمهم لطبيعة تلك العلاقة. فلا يكون الأفراد كلهم نسخة واحدة، بل يتفاوتون بحسب موقعهم من الفهم، وحظهم من التربية التي هي قوام السلوك بمقتضى العقد الاجتماعي للأمة"³.

وهذا الأمر يوضح من جهة ثانية علاقة الفرد بالمجتمع، وهي علاقة ثنائية بطبيعتها، وإن كان تأثير لغة الجماعة في لغة الفرد أقوى من تأثيره في لغة جماعته "لأن التفكير الجمعي هو الذي يملئ وجوده على الفرد، على نحو أو

² محمود السمران **اللغة والمجتمع رأي ومنهج** (الإسكندرية: دار المعارف، 1963)، ص 04
³ سمير شريف أستيتية، **اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج** (الأردن: عالم الكتب الحديث، 2005)، ص 680

آخر باعتبار انتماء الفرد إلى النظام اللغوي للجماعة. فلا وجود لفرد يختار لغته بنفسه، وإنما هي لغة المجتمع⁴.

وهو ما ضمنه دي سوسير في مبادئه اللسانية، ودعمه بثنائية: اللغة (جماعية، اجتماعية) // الكلام (فردية)؛ فإذا كانت اللغة هي مجموعة الذخيرة المختزنة في أذهان أفراد الجماعة اللغوية الواحدة، فإن الكلام هو الذي يحققها عن طريق الأداء الفعلي الذي يمارسه كل فرد من أفراد هذه الجماعة.

ومن هذا المنطلق يبيث المجتمع فئات مختلفة ترسم جوانب لغوية وتحقق استعمالات خاصة، قد لا تتدرج إلا في إطار هذه الفئة "فما أصاب الحياة الحديثة من تعقد ومن ضيق التخصص في مختلف الميادين قد نشأ عنه كثير من "اللغات الخاصة"، التي يجب أن يعنى بها الباحث اللغوي"⁵، وفي أحيان كثيرة تصطدم بعض مفردات هذه الفئات ولا تتحقق دلالاتها إلا بإدراك طبيعة الفئة المقصودة وانتماءاتها.

– اللغة والسياق

بناء على ما سبق يتضح أن المفردة ليس لها بعد لغوي مباشر، وإنما فعاليتها تتحقق بتفاعل جوانب أخرى غير لغوية، اجتماعية وثقافية، وأيديولوجية...؛ فاللغة ليست مجرد رموز جاهزة، أو قوالب مباشرة، لأن ذلك يصورها جهازا مبرمجا، ما يقلل من فعاليتها التواصلية. والمفردة المعزولة عن هذه الجوانب تكتسب دلالات عامة ومتعددة تجعلها صالحة للدخول في أكثر من خطاب.

⁴ المرجع السابق، ص 679

⁵ محمود السمران، اللغة والمجتمع، ص 04

*السياق هو "التركيب الذي ترد فيه الكلمة، ويسهم في تحديد المقصود بها. و يرى أصحاب هذه النظرية أن الدلالات الدقيقة للكلمة تتضح من خلال تسييقها؛ أي وضعها في سياقات مختلفة". سامي عباد وآخرون، معجم اللسانيات الحديثة إنجليزي – عربي (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997)،

ووحده السياق هو من يحدد الدلالة المقصودة دون غيرها من الدلالات، وهو الذي يفرض على الكلمة قيمة حضورية معينة: "فالدوال لا يتم اختيارها لتعبر عن معنى داخلي فيها، ولكن يتم الاختيار لتوظيف الدال في سياق تعبيرى ذي مواصفات خاصة تختلف كثيرا أو قليلا عن مواصفاته الوضعية، فالمعجم يقدم الدوال في جداول منفصلة أحيانا، ومتطابقة أحيانا، ومتداخلة أحيانا ثالثة، وهنا تتمثل صعوبات الاختيار لأنه يتصل بالمواضعة ثم يتحرك منها إلى السياق، بحيث يصبح الاختيار عملية واعية، لا مجرد تحرك عشوائى. وهذا الوعي يتعلق بالجانب الصوتي والجانب الدلالي على صعيد واحد"⁶، وهو وعى لغوي بالدرجة الأولى، يعضده وعى من نوع آخر، يتعلق أساسا بملايسات الحدث الكلامي في إطار ما يسمى بـ"سياق الموقف أو المقام".

ويعد العالم الإنجليزي "فيرث" رائد هذه الرؤية في الغرب، وهو يجزم أن المعنى لا ينكشف إلا بوضع الوحدة اللغوية في سياقات مختلفة. ولذلك فمعنى الكلمة عنده - وعند أصحاب النظرية السياقية - هو استعمالها في اللغة، أو الطريقة التي تستعمل بها، أو الدور الذي تؤديه فيها⁷. وأن الوصول إلى المعنى الدقيق للحدث اللغوي أو الكلامي يستوجب وصف الظواهر في الكلام وتحليلها، والاهتمام بالاستعمال الفعلي للكلمة في إطار مجتمع بعينه.

وقد سبق فيرث، إلى هذا الاهتمام بـ"سياق الكلمة"، لغويون كثر أمثال "قندريس" و"باختين". على أن الأول ركز على الرسالة أو النص كعنصر من عناصر السياق، وأغفل العناصر الأخرى التي أثبت أهميتها "باختين" في قوله: "القول المنجز كالجزيرة الطافية على محيط لا حدود له، وذلك هو الحديث

⁶ محمد عبد المطلب، قراءات أسلوية في الشعر الحديث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)، ص 60

⁷ ينظر: أحمد مختار عمر، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، 1998)، ص 68

الداخلي، أما أبعاد وأشكال هذه الجزيرة فيحددها المقال وسامعوه⁸، داعيا إلى ضرورة إنجاز ما يسمى "نظرية التحدث" التي تراعي ظروف المقال وعناصره (متكلم، مستمع، رسالة) وهي العناصر نفسها التي شدد عليها رومان جاكبسون، وأورد قيمتها المتكاملة في التواصل.

والحقيقة أن اللغوي الإنجليزي "فيرث" قد تأثر في نظريته السياقية بالأنثروبولوجي البولندي "ماليونوفسكي" الذي قام بدراسة الدور الذي تؤديه المجتمعات البدائية بوصف لغتهم صيغة من الحركة و ليست أداة للانعكاس. وهو يركز على المقام أو الموقف الذي تتم فيه اللغة، ويرى أن السياق اللغوي لا غنى له عن سياق الموقف فهما مرتبطان، يكمل أحدهما الآخر.

وقد لاحظ "ماليونوفسكي" أن اللغة تتوافق مع نشاطات المتكلم وأعماله اليومية، وأن وظيفة الكلام في المجتمع هي خلق الروابط العاطفية والاجتماعية. وركز "ستيفن أولمان" كذلك على فكرة السياق، وأشار من خلاله إلى دور (المعنى المركزي والمعنى السياقي) في تحديد دلالات الألفاظ وتحليل النصوص؛ فهو يرى أن للمعنى جوانب ثلاثة هي: (المعنى الأساسي أو المركزي، والمعنى

⁸ ميخائيل باختين. الماركسية وفلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري، يمني العيد (المغرب: الدار البيضاء، 1986)، ص104

* وصل ماليونوفسكي بعد دراسته لأمثال هذه المجتمعات البدائية إلى أن وظيفة اللغة ليست كونها مجرد وسيلة للتفاهم أو التوصيل. بل وظيفة اللغة هي أنها حلقة في سلسلة النشاط الإنساني المنتظم، وهي جزء من السلوك الإنساني وضرب من العمل، وليست أداة عاكسة للفكر. وأن استعمال اللغة على هذه الصورة ليس قاصرا على الجماعات البدائية، بل يظهر في أرقى الجماعات تحضرا. فهناك وظائف كلامية كثيرة لا نجد فيها نقلا للأفكار، أو شيئا يمكن أن ينقل كالمونولوج، واصطناع اللغة في الاجتماعات الدينية (الصلاة، الدعاء ...)، واستعمالها في المخاطبات الاجتماعية التي لا تستهدف غاية (لغة التحيات، ولغة الأدب، ولغة المجاملات ...). وكلها وظائف لا تنتقل أفكارا بقدر ما هي استعمالات للغة في إطار ما يسمى بالسلوك الجماعي. ينظر. محمود السعران، اللغة والمجتمع، ص17، 24. وينظر: ف. ر. بالمر، علم الدلالة إطار جديد، ترجمة: صبري إبراهيم السيد (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1998)، ص 75

التطبيقي أو السياقي، والمضمون الانفعالي والعاطفي)، وهي جوانب متصلة، ولا يمكن الفصل بينها بأي حال من الأحوال⁹.

وبذلك فإن البحث في دلالة الكلمات يقتضي إدراك أن هناك فرقا بين معناها المعجمي المجرد، ومعناها السياقي، أي اكتسابها لدلالات أبعد من دلالاتها المعجمية، من خلال تفاعلها مع غيرها من المفردات في السياق حقيقة أو مجازا*، إضافة إلى ضرورة إدراك الجوانب العاطفية والانفعالية التي تطبع الدلالة المعجمية بإحساءات عاطفية وتأثيرية اجتماعية؛ فاللغة هي - في المقام الأول - جزء من نشاط اجتماعي متسق، ومن ثم فإن "الكلمة إذا عزلت عن سياق هذا النشاط الذي يغلفها، أو عن سياق الموقف الذي تستخدم فيه، تصبح وعاء فارغا من المعنى، والألفاظ لا يمكن أن توجد في فراغ، وبالتالي فإن سر اللغة ليس في الكلمة المفردة، وإنما في السياق الذي ترد فيه"¹⁰. وعليه فإن الكلمة في الاستعمال يحكمها أمران:

الأول: السياق اللغوي نفسه، الذي لا ينظر إلى الكلمات بوصفها وحدات معزولة، أي أن الكلمة يتحدد معناها بعلاقاتها مع الكلمات الأخرى في السلسلة الكلامية.

⁹ ينظر: ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1997)، ص 175

* ففي الشعر، مثلا، يعرف المعجم الشعري بأنه "المتن اللغوي الذي يشكل مجموع المفردات التي استخدمها الشاعر في نصه المدروس، والتي تكونت من خلال بيئته وثقافته ومناخه الذي عاش فيه. وهذا المعجم يتكون من أساسين، الأول: الشق الكمي، ويقصد به كم الألفاظ التي تكونت في ذاكرة الشاعر من خلال قراءته وتجاربه وثقافته، والشق الثاني هو الشق الكيفي، ويقصد به كيفية تشكيل الشاعر لهذه المفردات في النص، بمعنى إعطائها فعالية سياقية تتجاوز مجرد العلاقات النصية إلى علاقات خارجية". هایل محمد الطالب، قراءة النص الشعري - لغة وشكلا (دمشق: دار البناييع طباعة و نشر و توزيع)، (2008)، ص 47

¹⁰ كريم حسام الدين، التحليل الدلالي، إجراءاته ومناهجه (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، دت)، ص 52

الثاني: القرينة أو الموقف الذي يقال فيه الكلام، أي الظروف التي حدث فيها السياق.

لذلك فإن إجلاء المعنى على المستوى الوظيفي (الصوتي، والصرفي، والنحوي)، وعلى المستوى المعجمي، لا يعطينا إلا المعنى الحرفي المباشر، وهو معنى فارغ تماما من محتواه الاجتماعي والتاريخي؛ فاللغة ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى، والمتكلم داخل المجتمع، تحدد دلالاته أثناء استعماله للمفردات تبعا للمقام الذي يتواجد فيه: "وفكرة المقام هذه هي المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، وهو الأساس الذي ينبني عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، وهو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات والأحداث، والظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال"¹¹.

ويتكون هذا السياق من ثلاثة عناصر أساسية هي:¹²

1- شخصية المتكلم والسامع، ومن يشهد الكلام، ودور المشاهد في المراقبة أو المشاركة.

2- العوامل والأوضاع الاجتماعية المتصلة بالحدث اللغوي، ويشمل الزمان والمكان كحالة الجو، والوضع السياسي ...

3- أثر الحدث اللغوي كالإقناع أو الفرح أو الإغراء أو الضحك ...

وقد كان الفيلسوف البريطاني "أوستين" من الذين أعطوا اهتماما بالغا لفكرة المقام ودوره في تفسير النص تفسيرا شاملا يجمع إلى جانب المكونات اللغوية الداخلية، القرائن الخارجية المصاحبة له، والتي تؤثر تأثيرا واضحا في تخيير الدلالة المقصودة ظاهرة أو مستترة. وذلك عن طريق اهتمامه بدراسة النواحي الدلالية المقامية التي تتضمن التفاعل بين المقام الذي تمّ فيه نطق

¹¹ تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها (القاهرة: عالم الكتب، 1983)، ص337

¹² محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت)، ص339

تعبير ما، وقصد المتكلم، ووصف سياق الكلام، مما يساعد على تحديد المعنى المراد، أو ما يسمى بالقول المضمر الذي يفهم من ملابسات الموقف الذي يظهر أساسا في الحوارات والمحادثات التواصلية. فعندما يسأل شخص غريب عن الوقت، مثلا، فقد يستعمل تركيبا يبدو في ظاهره سؤالاً عن ملكية الساعة (عندك ساعة؟)، ولكنه في الأصل لا يقصد المعنى المباشر؛ فالمقام هنا يضم شخصا لا يملك ساعة، وهو بحاجة إلى معرفة الوقت، فيصادف شخصا - قد لا يعرفه - فيستعين بهذه الجملة سؤالاً، لا بداعي التطفل وإنما بداعي الجهل بالوقت. والأمثلة على هذا كثيرة ومتنوعة، وتدخل في مجملها ضمن نفعية اللغة وبراعماتية التواصل.

سياق الموقف والدرس العربي القديم :

أدرك علماء اللغة العربية أهمية الدلالة السياقية بشقيها اللغوي* وغير اللغوي، فربطوا معاني الآيات بأسباب النزول، وأكثروا من الحديث عن الحقيقة والمجاز، والخصوص والعموم ...، وظهرت لديهم عبارات من قبيل: "لكل مقام مقال"¹³، "ولكل كلمة مع صاحبها مقام"، وعيا منهم بدلالة السياق، وأثره في كشف إichاءات الخطاب، وإدراكا منهم لاجتماعية اللغة، وارتباطها الأكيد بثقافة متكلميها. وأن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة من مقام الفخر، إلى مقام المدح، إلى مقام الهجاء...، لأن

*- تحدث الإمام الجرجاني عن هذا الموضوع بإلحاح و براعة في نظريته المعروفة "النظم"، وتلاه في ذلك باقي اللغويين. وهي نظرية تؤكد ضرورة النظر إلى العلاقات القائمة بين الكلمة وسائر ما يتألف معها في السياق. وفي تأكيده على توافق النظم مع مراعاة الحال أو الموقف يقول الجرجاني: «... وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق». «دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد عبده (بيروت: دار المعرفة للنشر، 1994)، ص 51

¹³ الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجبل، 1992)، ج3، ص34

صورة المقال في نظرهم تختلف بحسب المقام، وما يتطلبه من كلمات وأساليب (حقيقة أو مجاز).

وقد وضعوا في هذا الصدد عبارات كثيرة تحدد هذا التوجه، نحو قولهم: "كل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ"¹⁴، وقولهم: "كل نوع من الأسماء نوع من المعاني"¹⁵. فالأحوال والمقتضيات متنوعة ومتعددة بحسب المواقف، "مقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل، وكذا مقام الكلام ابتداء يغير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يباين مقام البناء على الإنكار، وجميع ذلك معلوم لكل لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر"¹⁶.

والمقال يختلف بحسب المتلقي، كما يوضحه الجاحظ في قوله: "إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم بما فاتك من رضى الحاسد والعدو، فإنه لا يرضيهما شيء، وأما الجاهل فلست منه وليس منك، ورضى جميع الناس شيء لا تناله"¹⁷.

وقد ألزم الأصوليون من يتصدى لاستخراج الأحكام من القرآن الكريم بعدد من الشروط، أهمها:¹⁸

¹⁴ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق فوزي عطوي (بيروت: دار إحياء العلوم، 1998)، ص13

¹⁵ الجاحظ، الحيوان، ج3، ص39

¹⁶ السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987)، ص168

¹⁷ الجاحظ. البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجبل، 1992)، ج1، ص

116

¹⁸ أتمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص398

1- ألا يغفل عن بعضه في تفسير بعضه.

2- ألا يغفل عن السنة في تفسيره.

3- أن يعرف أسباب نزول الآيات.

4- أن يعرف النظم الاجتماعية عند العرب.

وهذه العناصر الأربعة تمثلها كلمة (مقام)، وغياب عنصر منها قد لا يحيط بجميع جوانب الآية. حيث يشكّل الشرط الأخير، ضمنها، أساساً لفهم غير العربي للقرآن الكريم. وهي الجزئية التي أكد عليها السكاكي عند شرحه وتحليله لقوله تعالى: "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت" (الغاشية، 20/17).

حيث إن المخاطب الذي لا يعرف ما يتعلق بالحياة الاجتماعية للإنسان العربي وقت نزول الآية، ولطبيعة الوسائل المسخرة لهذه الحياة، قد يستغرب مسوغ الجمع بين الدوال: (إبل، وسما، وجبال، وأرض)، وذلك "لبعد البعير عن خياله في مقام النظر، ثم لبعده في خياله عن السما، وبعد خلقها عن رفعها، وكذا في البواقي" ¹⁹.

غير أن العارف بما يتصل بحياة العرب، اجتماعياً وثقافياً، يمكن أن يقع في تصوره داعي هذا النسق في الربط، ذلك "أن أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربهم وملبسهم من المواشي، كانت عنايتهم مصروفة، لا محالة، إلى أكثرها نفعاً، وهي الإبل. ثم إذا كان انتفاعهم بها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب. كان جل مرمى غرضهم نزول المطر، وهم مسارح النظر عندهم السما، ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم، وإلى حصن يتحصنون فيه، ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال" ²⁰.

¹⁹ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 257

²⁰ المرجع السابق، ص 257.

إن اللغة لا تنفصل عن السياق الاجتماعي، ولذلك فمن الضروري معرفة عادات العرب وأغراضهم في الأقوال والأفعال للوقوف على الظروف التي كانت تحف بالنص القرآني عند نزوله، وما كان يستقر في ذلك المجتمع من تقاليد وعادات، وما كان يسود من تعامل وعلاقات في شتى الشؤون، لأن معظم الآيات الكريمة كانت تنزل على أساس الوقائع والمناسبات²¹.

وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى هذه المناسبات، وذكر ما هو أخص منها، وهي مناسبة النص الخاصة، ومعرفتها واجبة لفهمه. وفي ذلك يقول: "... وقصد الخطاب يعلم بعلم ضروري، يحصل من قرائن وأحوال ورموز وإشارات وحركات من المتكلم وتغيّرات في وجهه، وأمور معلومة من عاداته ومقاصده وقرائن مختلفة لا يمكن حصرها في جنس، ولا ضبطها بوصف"²². وهذه القرائن هي التي تتحكم في دلالة الخطاب، وتبيّن المراد منه، وهي بطبيعتها مستقلة في دلالتها على اللفظ لأن "حركة المتكلم وأخلاقه وعاداته وأفعاله وتغيّر لون وجهه وتقطيب وجهه وجبينه، وحركة رأسه، وتقلب عينيه ... أدلة مستقلة يفيد اقتران جملة منها علوما ضرورية"²³.

وفي اعتداده بفكرة المقام، يرى تمام حسان، وهو تلميذ فيرث، أنها الأساس الذي ينبني عليه الوجه الاجتماعي من أوجه المعنى، وفي تفريقه بين المقال ومقامه يقول: "والفرق بين ما يسميه الناس "نص القانون"، وبين ما يسمونه "روح القانون"، هو فرق ما بين الاكتفاء بمعنى "المقام" وعدم الاكتفاء به،

²¹ ينظر: محمد فتحي الرديني، المناهج الأصولية (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997)، ص 34
²² أبو حامد الغزالي، المستصفى في علوم الأصول (بולاق: المطبعة الأميرية، د. ت)، ج 2، ص 41

42،

²³ المرجع نفسه، ص 42

والغوص وراء المراد الحقيقي المشروع، وهو معنى المقام²⁴. وهو ما يسميه ابن خلدون بـ (بساط الحال)، أو القرائن التي تدل على خصوصيات المقاصد²⁵.

السياق والخطاب

إن تحليل الخطاب يعدُّ مجالا خصبا من مجالات اللسانيات التطبيقية، وهو مجال وثيق الصلة بلغة الكلام. وقد اهتم اللغويون بتأكيد العلاقة بين عملية التحليل اللغوي والظروف الخارجية للخطاب من خلال الاهتمام بالفرد ومحيطه باعتبار المتكلم عنصرا فاعلا في المقام.

وعلى الرغم من تعدد التعريفات والمفاهيم المحددة لمصطلح "خطاب"، فإن الأكيد أن هناك صلة وثيقة بينه وبين السياق أو الموقف الذي يقال فيه، وهو الأمر الذي يفترض جوانب كثيرة غير لغوية تعطي الخطاب أبعاده الاجتماعية والثقافية، وتبرز مقصديته أو الجوانب البراغماتية فيه، والتي تعد "بمثابة التفاعل الحيوي بين معرفة المتكلم العالم والأبعاد الدلالية النحوية، إضافة إلى دراسة دور المتكلم والمستمع في تركيب المعنى مع الأخذ بعين الاعتبار الجوانب النفسية والاجتماعية"²⁶.

والأكيد أن هذه الجوانب البراغماتية تتحقق بتوافر أطراف الخطاب، أو عناصر العملية التواصلية التي تقوم على "منظومة ثلاثية، أولها: المرسل، باعتباره صاحب المبادرة في التواصل، وثانيها: المستقبل، باعتباره هدفا مباشرا

²⁴ تمام حسان ، اللغة العربية: معناها ومبناها، ص338

²⁵ ينظر: عاطف مدكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة (القاهرة: دار الثقافة للنشر

والتوزيع، 1987)، ص 334

²⁶ ميشيل مكارفي، قضايا في علم اللغة التطبيقي، ترجمة: عبد الجواد توفيق محمود (القاهرة: المجلس

الأعلى للثقافة ، 2005)، ص 74، 75

للمرسالة، وثالثها: المجتمع، باعتباره مصدر العلاقة بين أطراف التواصل، وباعتباره كذلك مصدر النظام الذي تبني على أساسه هذه العملية²⁷.

والهدف من التواصل لا يأتي إلا من خلال الربط المنطقي، والصحيح بين مختلف هذه العناصر التواصلية، فماهية المرسل وطبيعة المستقبل وفحوى الرسالة أمور لها تأثيرات كبيرة على تحقق العملية التواصلية (خاطبوا الناس على قدر عقولهم)، وتظهر استنادا إلى ذلك أنماط متعددة من الخطابات (رسمية، وعادية، وجامدة...). وقد قسّم مارتين جونس هذه الخطابات، حسب أساليبها إلى خمسة مستويات هي:²⁸

1 - الأسلوب الجامد: ويكون في الكلام الرسمي جدا، الذي يهمل فيه المستمع، لأنه متلقٍ سلبي لا يستطيع أن يؤثر فيما يقال أو أن يتدخل فيه. ونجده بصورة كبيرة في الخطب الرسمية والأدعية والصلوات والإعلانات وفي تلاوة الكتب المقدسة، أو إلقاء الشعر، وتمثيل المسرحيات وفي الكلام المطبوع.

2 - الأسلوب الرسمي: سلبية المتلقي هنا ليست كاملة، إنما قد يتأتى له أحيانا التدخل في المناقشة أو التعقيب، كحضوره ندوة ما، أو محاضرة في الجامعة. ويدل هذا الأسلوب على وجود مسافة اجتماعية (فوارق طبقية) بين المتكلم والمستمع (الموظف والرئيس، الخادم والسيد...).

3 - الأسلوب الاستشاري: يتطلب هذا النمط فعالية من الطرفين، ولا يحتاج فيه المتكلم إلى تميم عباراته أو اختيار الأفضل منها، لأنه يحتاج إلى استجابة السامع ومشاركته الرأي.

²⁷ سمير شريف أستيتية، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج، ص 675

²⁸ ينظر: نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (الكويت: سلسلة عالم المعرفة،

(1978)، ص 189، 191

4- الأسلوب العادي: وهو الأسلوب المستعمل بين الأصدقاء والزملاء، وأفراد العائلة، حيث تقل الحواجز الاجتماعية والوظيفية، ويتحرر المتكلم من الاحتراز في انتقاء الألفاظ، إذ قد يتاح له استعمال العامية والتراكيب المختصرة، كما تظهر فيه اللغة الخاصة بمهنة معينة أو فئة مخصوصة. وقد يتعرض المتكلم في هذا النوع من الخطابات إلى المقاطعة والتعليق، والتوقف، والاستعانة بالإيماءات وإشارات اليد للموافقة أو الرفض، على أن تكون هذه الإشارات مما هو متفق عليه بين جمهور المتحادثين.

5- أسلوب الألفة الشديدة: وفيه تغيب جميع المعوقات الاجتماعية، والحواجز التي يمكن أن تحول بين أفرادها. وهو الأسلوب الذي يشيع بين أعضاء الأسرة الواحدة، الذين يجمعهم الحب والود والتفاهم، ويتم عن طريقه التعبير عن العواطف والمشاعر أكثر من نقل الأفكار والمعلومات.

والحقيقة أن هذه الأساليب ليست محصورة في عينات معينة، بل المقام وحده هو الذي يفرض أحدها، وقد يفترض المقام الواحد أكثر من أسلوب حسب الظروف المتغيرة وحسب شخصية المتكلم في حد ذاته: "فتقسيمات مارتن جونس مقاربة، حتى أن النظر إليها عموديا وبالترتيب نفسه الذي وردت عليه يكشف عن قدر من التداخل بين كل مستوى والذي يليه، مما يعني أنه من العسير الفصل بين كل مستوى وآخر بتمايز واضح"²⁹.

فإذا حدث واتسعت الهوية الاجتماعية بين أفراد المجتمع اللغوي الواحد بظهور الفوارق الاجتماعية واللغوية، فإن ذلك سيؤثر تأثيرا سلبيا على تحقق الوظيفة التواصلية للغة، وسيخلف فجوات اجتماعية، وأصنافا كثيرة من المتخاطبين، ف"وجود طرائق مختلفة من الحديث تميز طائفة في الجماعة التي

²⁹ ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق (مكة المكرمة: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر،

تتكلم لغة مشتركة حقيقة معروفة، هي قائمة في كل مجتمع، ونحن نصنف الناس على أساس منها، والتغييرات التي تطرأ على أية لغة مشتركة حسب المستويات الاجتماعية، يسمى كل منها لهجة طائفية أو لهجة طبقية³⁰.

وتؤثر الثقافة في هذا السياق كعامل رئيس لتحديد المدلول وتوجيه إيحائيته، فكلمات من قبيل: (عقيلة) و(أبي) و(توفي) هي كلمات توظفها طبقات اجتماعية مثقفة، قياسا على كلمات (زوجة أو امرأة)، و(دادي أو بابا)، و(مات)...". والسياق الثقافي هو الذي فرض على كلمة (عامل) أن تدل في العصر الجاهلي على كل من يعمل بيديه، وجمعها عمال وعملة، ثم أصبحت في العصر الإسلامي تدل على الوالي المعين من قبل الخليفة على مصر من الأمصار، والجمع لها: عمال فقط، ثم في العصر العباسي، ومع نشأة علم الكلام أصبحت كلمة (عامل) تحمل كل هذه المدلولات، ولكن إذا جمعت على عمال انصرف الذهن إلى من يعملون بأيديهم، وإذا جمعت على عاملون انصرف الذهن إلى موظفي الدولة، وإذا جمعت على عوامل انصرف الذهن إلى الأسباب والدوافع، وهكذا يصبح للمحيط الثقافي أثر في تحديد مدلول الكلمة³¹.

ولللجنس أيضا تأثير كبير على اللغة وتوجيه دلالتها: "فمن الفروق الملحوظة مثلا أن أصوات النساء في المادة أكثر حدة وأعلى طبقة من أصوات الرجال، وذلك لأسباب بيولوجية (...)"، كما أن النساء أكثر حرصا على النطق السليم للمفردات والجمال، والنساء أيضا محافظات في استعمال اللغة أكثر من الرجال (...)"، كما أن لغة النساء تزخر بالصفات التي تعبر عن قوة العاطفة سواء كانت حقيقية أم تستعمل من باب المجاملة فقط³².

³⁰ محمود السمران، اللغة والمجتمع، ص 60

³¹ رجب عبد الجواد إبراهيم، دراسات في الدلالة والمعجم (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر،

2001)، ص 25

³² نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة، ص 183

ومن ألوان اللهجات الطائفية ما يسمى باللهجة السرية، وهي تلك اللهجة التي يلجأ إليها أصحابها تهربا من الرقابة الاجتماعية أو خوفا من السلطة "أيّا كان إطارها: أهل، مدرسة، حكومة...". وذلك على نحو ما يظهر في لغة اللصوص والخارجين عن القانون، الذين يتخذون لأنفسهم قاموسا خاصا، ورموزا سرية، وتعبيرات مبهمة لئلا ينكشف أمرهم، لدرجة أنهم يحملون المفردات دلالات جديدة ويبتكرون أخرى لا يفهمها سواهم³³.

وهو نفس ما نجده في لهجة المراهقين، الذين يتكوّن عندهم قاموس خاص تمتاز فيه مفردات غريبة، يقيمونها على أوزان مبتكرة، أو يصيغونها بقوالب أجنبية كمفردات معربة.

والمتلّفي لأي نوع من هذه الخطابات، باختلاف مستوياتها ودلالاتها، يجب أن تكون لديه خلفيات مسبقة حتى لا ينكسر أفق توقعه مع أول مواجهة للخطاب: "فكلما كان قريبا من سياقات إنتاج الخطاب الثقافية والفنية والأخلاقية... معاشيا لها، اقترب أفق التوقعات من هذا الخطاب، في حين أنه حينما يتسع الفارق الزمني بينهما، يلجأ القارئ من أجل إنجاح مشروعه القرائي إلى إحداث نوع من المعاشية وأفقا للتوقعات يتماشى وزمن إنتاج الخطاب"³⁴.

السياق واللغة الثانية:

والحقيقة أن بعض تلك اللغات الخاصة، التي تجنح عموما إلى مجانية الألفاظ العربية وتعويضها بأخرى أجنبية أو غريبة عنها، هي وليدة التغيّرات الاجتماعية الكثيرة، التي تتبثق عنها مخاطر كثيرة تضر باللغة قبل أن تثمر فيها؛ فغزو المفردات الأجنبية واستعمالاتها في شتى الميادين راجع إلى كون أهل

³³ ينظر: محمود السعران، اللغة والمجتمع، ص 60

³⁴ نواري سعودي، الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي مع دراسة تحليلية نموذجية (القاهرة: مكتبة

الآداب، 2005)، ص 76

اللغة مستهلكون، وليسوا منتجين، وهو عين ما يحدث في المجتمع العربي" فالتخلف الحضاري لأهل اللغة العربية جعل العربي عاجزا عن التعبير عن هذا الطوفان الحضاري من المخترعات الجديدة، ولم يكن أمامه بد من استعمال هذه المواليد الحضارية بأسمائها الأجنبية³⁵، نحو: راديو، وسينما، وموبايل، وفاكس، إلخ...

وزيادة على توظيف هذه المفردات الأجنبية لتعويض العجز الإنتاجي، فإن كثيرا من أبناء هذه اللغة يعتقدون باللغات الأجنبية ويعتبرونها الأصلح للتعبير عن روح العصر، لذا نجدهم يتخلّون عن لغتهم شيئا فشيئا، وينقلون هذا الأمر إلى غيرهم.

ولعل انتشار مثل تلك المفردات، وبروز هذه العقليات، كان بدعم كبير من وسائل الإعلام، سواء منها المسموعة: المذياع، أم المرئية: التلفاز، السينما، أم المقروءة: الصحف والمجلات...، فهذه الوسائل أباحت تلك التطورات السلبية، وعمّقت من حجم تأثيرها السلبي على اللغة والمجتمع، وهي لم تكتف بذلك فحسب، بل لوثت المعجم اللغوي للمتلقى بسيل جارف من الأخطاء اللغوية التي أضحت بفعل تداولها من قبيل الصواب، رافعين شعار "خطأ مشهور خير من صواب مهجور".

والحقيقة أن الدور الذي تقوم به المجامع اللغوية يبقى قاصرا، لأن النتائج التي يتوصل إليها، والمفردات التي يقابل بها المصطلحات الدخيلة على اللغة، تبقى في كثير من الأحيان مجرد حبر على ورق لقلة تداولها، ولضعف الترويج لها، خاصة إذا كانت وسائل الإعلام لا ترحب في الأصل بهذه

³⁵ محمد محمد داود، لغويات محدثة (القاهرة: دار غريب الطباعة والنشر والتوزيع، 2006)، ص

المقابلات العربية³⁶. وهكذا بقيت الأمور معلقة "خصوصا وأن تعريب العلوم والتقنيات لم يتم في مستوى الجامعات ومراكز البحث العلمي، وستبقى شخصيتنا مشوهة، إذ لسنا عربا إلا في بيوتنا وفي الملهي والأمسيات الشعرية، أما في ميدان العلم والتقنيات الذي هو قوام السؤدد والسيادة في زماننا فنحن عالة على غيرنا حتى في اللغة"³⁷.

ويدخل في هذا الإطار نماذج الأمثال والحكم، والنوادر، والأحاجي، والألغاز... التي كانت في مناسبتها دليل قوتها وفعاليتها الدلالية، وهي في كل مناسبة جديدة تستحضر القوة والفعالية الدلالية نفسها.

ولعل هذه النماذج هي التي تقع حائلا كبيرا في الترجمة، لأن الثقافة تلعب دورا رئيسا في تحديدها، إضافة إلى الخلفية الاجتماعية والنفسية والمقامية؛ فالشعوب تختلف بثقافتها قبل لغتها، ولذلك فإن دور المترجم لا ينحصر في مجرد إتقان اللغة، بقدر ما يتمركز في إمكانيته نقل الواقع الثقافي الملموس، وحصره في النموذج الذي يريد نقله، وذلك باستحضار ملابسات الحدث الكلامي، وظروف قوله، وأدوات تفعيله، وإمكانيات تطويعه لظروف مشابهة. وهذا الاختلاف الصريح بين ملابسات المقال في ثقافة ما، وإمكانية ظهوره في ثقافة أخرى هو من أهم عوائق تفعيل المقال إزاء المقام الذي يحتويه ويبيته.

³⁶ وقد وضع عبد الرحمن الحاج صالح مشروعا لغويا ضخما أسماه "مشروع الذخيرة اللغوية العربية"، وهو بنك معلومات آلي يمكن الباحث العربي من العثور على مختلف المعلومات من واقع استعمال العربية و"يسهل على الجميع الخوض في أعماق الواقع التعبيري والاتصالي ومن ثم الفكري المعيشي للأمة العربية القديم والحديث، وفيما يخص الميادين الأخرى غير اللغوية فكثيرة جدا أيضا نذكر منها الدراسات التاريخية (...) وكذلك الدراسات الاجتماعية والنفسية الاجتماعية بحصر مجالات التصورات الخاصة بكل فئة في كل قطر أو إقليم عبر العصور ودراسة تفاعلها ومدى تأثيرها وما ترتب على ذلك بالبناء جزئيا على العناصر اللغوية ذات الدلالة ومعرفه مدى اتساع رقعتها ومعرفه ترددها في الخطابات الرسمية وغير ذلك، وكذلك الدراسات الاقتصادية والعمرانية والحضرية من خلال استعمال الناس اللغة". عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، (الجزائر: موفم للنشر، 2007)، ص 400

³⁷ المرجع نفسه، ص 382

الخاتمة

إن اللغة في تغير مستمر، سواء كان هذا التغير إيجابيا أم سلبيا، وتغيرها مرتبط بواقعها في المجتمع الذي تعكس ما فيه، رقيًا كان أم انحطاطا، ولكي يكون هذا التغير إيجابيا يجب أن تتكاثف الجهود لدرء الغزو الفاحش لتلك المستحدثات اللفظية، التي تزاحم الرصيد اللغوي التراثي، وتسهم في طمس شخصية الفرد في مجتمعه الذي ينتمي إليه.

قائمة المصادر والمراجع

- 1- أحمد مختار عمر، علم الدلالة (القاهرة: عالم الكتب، 1998).
- 2- تمام حسان، اللغة العربية: معناها ومبناها (القاهرة: عالم الكتب، 1983).
- 3- الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجبل، 1992).
- 4- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجبل، 1992).
- 5- أبو حامد الغزالي، المستصفى في علوم الأصول (بلاق: المطبعة الأميرية، د.ت).
- 6- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق فوزي عطوي (بيروت: دار إحياء العلوم، 1998).
- 7- رجب عبد الجواد إبراهيم، دراسات في الدلالة والمعجم (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر، 2001).
- 8- ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق (مكة المكرمة: مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، 2004).
- 9- سامي عباد و آخرون، معجم اللسانيات الحديثة إنجليزي - عربي (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، 1997).
- 10- ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة : كمال بشر (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، 1997).
- 11- السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية، 1987).

- 12- سمير شريف أستيئية، اللسانيات، المجال والوظيفة والمنهج (الأردن: عالم الكتب الحديث، 2005)
- 13 - عاطف مذكور، علم اللغة بين التراث والمعاصرة (القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، 1987)
- 14- عبد الرحمان الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية (الجزائر: موفم للنشر، 2007)
- 15- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق محمد عبده (بيروت: دار المعرفة للنشر، 1994)
- 16- ف. ر. بالمر، علم الدلالة إطار جديد، ترجمة: صبري إبراهيم السيد (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، 1998)
- 17- كريم حسام الدين، التحليل الدلالي، إجراءاته ومناهجه (القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)
- 18- محمد عبد المطلب، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995)
- 19- محمد فتحي الرديني، المناهج الأصولية (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997)
- 20- محمد محمد داود، لغويات محدثة (القاهرة: دار غريب الطباعة والنشر والتوزيع، 2006)
- 21- محمود السعران، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي (القاهرة: دار الفكر العربي، د. ت)
- 22- محمود السعران، اللغة والمجتمع، رأي ومنهج (الإسكندرية: دار المعارف، 1963)
- 23- ميخائيل باختين. الماركسية فلسفة اللغة، ترجمة محمد البكري، بمنى العيد (المغرب: الدار البيضاء، 1986)
- 24- ميشيل مكارثي، قضايا في علم اللغة التطبيقي، ترجمة: عبد الجواد توفيق محمود (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2005)
- 25- نايف خرما، أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، 1978)

26- نوري سعودي، الخطاب الأدبي من النشأة إلى التلقي مع دراسة تحليلية نموذجية (القاهرة: مكتبة الآداب، 2005)

27- هايل محمد الطالب، قراءة النص الشعري لغة وشكلا (دمشق: دار الينابيع طباعة و نشر وتوزيع، 2008)